

القَصَصُ الدِّينِي
المجلد الرابع
العرب في أوزبك

ولادة وأبناؤنا

عبد الحميد جودة السحار

٢٠

كانت الأندلسُ تموجُ بالفتنِ والاضطراب ، وكان
كلُّ زعيمٍ يحاولُ أن يستبدَّ بإقليمه ، والخليفةُ
المستكفي في قصرِ قرطبة ، لا همَّ له إلا الأكلُ
والشرابُ ومجالسةُ الحسان ؛ فقد كانَ نهماً ، ساقطَ
الهمة ، أسيرَ الشهوة ، عاهراً الخلوة .

وتدُلُّه حُبُّا بجاريته « سَكْرَى » المورورية ،
فاستبدَّتْ به ، وأغرقتْهُ في لذائِته ، حتَّى لاحَ أنْ أيَّامَ
الأمويِّين في الأندلسِ أوشكتْ أنْ تُصبحَ ذِكْرَى .

كانت قرطبة مقصداً لطلاب العلم من مسلمين
ومسيحيين ، وكانت جامعُها منارةً للغرب ، ينبعثُ
منها نورُ العِرفانِ ، بينما كان قصرُ المستكفي مقصداً
لطلاب اللُّهو ، والرؤساءِ المَجْبولين على الجَهالة ،

العاكِفِينَ عَلَى الشَّرَابِ ، الهَائِمِينَ فِي بَحْرِ الْمَتْعَةِ .
وَأُنْجِيَتْ « سَكْرَى » وَلَادَةُ ، فَأَحْضَرَ لَهَا الْمُسْتَكْفَى
الْمُعَلِّمِينَ . وَشَبَّتْ وَلَادَةُ فِي قَصْرِ تَجْرِي فِيهِ الْخَمْرُ
أَنْهَارًا ، وَيُونُ فِي أَرْجَائِهِ أَصْوَاتُ الْمُطْرِبِينَ وَالْجَوَارِي
الْمُغَنِّيَاتِ ، وَتَطُوفُ بِجَوَانِبِهِ آيَاتُ الشَّعْرِ الْمَاجِنِ
الرَّقِيقِ ، فَتَفْتَحُ مَوَاهِبَهَا ، وَرَاحَتْ تَزْنِمُ بِالشَّعْرِ
فِي طَلَاقَةٍ وَتَحْرُرُ .

وَفِي سَنَةِ ١٠٢٥ م مَاتَ الْمُسْتَكْفَى ، فَازْدَادَتْ
وَلَادَةُ تَحْرُرًا ، وَأَصْبَحَ مَجْلِسُهَا بِقَرْطَبَةٍ مُتَنَذِي لَأَحْرَارِ
الْمِصْرِ ، وَفَنَازُهَا مَلْعَبًا لِحِيَادِ النِّظَمِ وَالنُّثْرِ ، يَعِشُو أَهْلُ
الْأَدَبِ إِلَى ضَوْءِ غُرَّتِهَا ، وَيَتَهَالَكُ أَفْرَادُ الشُّعْرَاءِ
وَالْكِتَابِ عَلَى حَلَاوَةِ عِشْرَتِهَا ، إِلَى سَهْوَةٍ حَجَابِهَا .
صَارَتْ وَلَادَةُ مَقْصِدَ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمُبْعَثَ
السَّحْرِ فِي مَجْلِسِهَا ؛ فَقَدْ كَانَتْ بَيَظَاءَ الْبَشَرَةِ ،
شُقْرَاءَ الشَّعْرِ ، إِذَا لَعِبَتْ عَلَى الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ ،
لَعِبَتْ بِعُقُولِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَقَاطَرُونَ

على مُتداهَا طامِعِين . فقد كانت تُجَاهِرُ بِلَذَاتِهَا ،
 حتَّى إِنَّهَا كَتَبَتْ عَلَى أَحَدِ عَاتِقِي ثَوْبَهَا :
 أَنَا وَاللَّهِ أَصْلَحُ لِلْمَعَالِي
 وَأَمْشِي مِشْيَتِي وَأَتِيهِ تِيهَا
 وَكَتَبْتُ عَلَى الْآخَرِ :
 وَأَمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي
 وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

٢

كَانَ ابْنُ زَيْدُونَ فَتًى مُرْهَفَ الْحِسِّ ، شَبَّ فِي بَيْئَةٍ
 غَنِيَّةٍ ، أَتَاحَتْ لَهُ مِنْذُ طُقُورَتِهِ الْإِتِّصَالُ بِالشُّعْرَاءِ
 وَالْأَدْبَاءِ ، وَغِشْيَانِ مَجَالِسِ الْأَدَبِ وَالْفُنُونِ . وَقَدْ
 هَفَّتْ نَفْسُهُ لَيْلَةً إِلَى مُتَدَى وَلَادَةٍ ، الَّتِي ذَاغَ صَبِيحَتُهُ
 فِي قُرْطُبَةٍ ، فَانْطَلَقَ إِلَى هُنَاكَ ، لِيُشَارِكَ شُعْرَاءَ قُرْطُبَةٍ

سهرتهم ، ويُشَنَّفُ أَذْنِيهِ بِمَوْسِيقَى وَلَادَةِ الْأَخْزَاذَةِ ،
التي ذاعَ أمرُها بين عُشَّاقِ الطَّرْبِ والشَّبابِ
الْأَرِسْتُقْرَاطِيِّ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِي بَدْخٍ مَا بَعْدَهُ
بَدْخٌ .

دَخَلَ ابْنُ زَيْدُونَ قَصْرَ وَلَادَةِ ، فَإِذَا بِوَلَادَةٍ
تَسْتَقْبِلُ ضِيُوفَهَا ؛ سَافِرَةَ الْوَجْهِ ، مُتَطَلِّقَةَ الْحَيَا ،
بِاسْمَةِ الثَّغْرِ . وَتَقْدَمُ ابْنُ زَيْدُونَ يُصَافِحُهَا ، فَإِذَا
بِقَلْبِهِ يَخْفُقُ فِي شِدَّةٍ بَيْنَ جَنِيهِ ، وَإِذَا بِبَصَرِهِ يَتَّبِعُهَا ،
وَإِذَا بِفِكْرِهِ يَشْرُدُ ، وَإِذَا بِهِ يَهِيمُ فِي عَوَالِمِ رَحِيَةِ
مِنَ الْخَيَالِ .

وَجَلَسَتْ وَلَادَةُ بَيْنَ أَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَشِعْرَائِهَا ،
وَدَارَتْ الْكُتُوسُ ، وَلَعِبَتْ الْخَمَرُ بِالْعُقُولِ ، وَحَنَّتْ
وَلَادَةُ عَلَى آلِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ ، فَإِذَا بِهَا تَعَبَتْ بِالْأَفِيدَةِ ،
وَتَسَبَّى الْعُقُولِ . وَظَلَّ ابْنُ زَيْدُونَ فِي تَطَلُّعِهِ الْوَلَهَانِ ،
وَالْتَقَتْ عَيْنَاهُ بِعَيْنَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فَرَقَّتْ عَلَى

شَفَّتِيهَا بِسْمَةِ ، كَانَ لَهَا فِي قَلْبِهِ وَقَعُ السَّهَامِ .
 وَظَلَّ ابْنُ زَيْدُونَ يَتَرَدَّدُ عَلَى مَجْلِسِ وَلَادَةِ ،
 وَالْعُيُونُ تَتَكَلَّمُ ، وَالْقَلْبُ يَخْفِقُ ؛ وَفَكَرَ ابْنُ زَيْدُونَ
 فِي أَنْ يَكْشِفَ لَهَا عَنْ حَبِّهِ ، وَإِذَا بَرُقَعَةٌ تَنْدَسُ فِي
 يَدِهِ ، فَيَفُضُّهَا وَيَقْرَأُ :

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي
 فَهَآئِي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمُ لِلْسِرِّ
 وَبِى مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا
 وَبِاللَّيْلِ مَا أَذْجَى ، وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ
 وَاضْطَرَبَ نَفْسُ ابْنِ زَيْدُونَ ، وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى
 وَلَادَةِ ، فَإِذَا بَوَاجْهَهَا يُشْرِقُ بِابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ ، أَنْزَلَتْ
 عَلَى قَلْبِ ابْنِ زَيْدُونَ بَرْدًا وَسَلَامًا .

فَلَمَّا طَوَى النَّهَارُ كَافُورَهُ (١) ، وَنَشَرَ اللَّيْلُ عَنَبَرَهُ ،
 أَقْبَلَتْ بِقَدِّ الْقَضِيبِ ، وَرَدَّفَ كَالْكُثِيبِ ، وَقَدْ

(١) هَذَا وَصَفُ ابْنِ زَيْدُونَ لِأَوَّلِ لِقَاءِهِ .

أَطَبَقْتُ نَرَجِسَ الْمُقَلِّ ، عَلَى وَرْدٍ كَالْحَجَلِ ، فَمَالَا إِلَى
رَوْضٍ مُدْبَجٍ ، وَظِلٍّ سَجَسَجٍ ، قَدْ قَامَتْ رَايَاتُ
أَشْجَارِهِ ، وَفَاضَتْ سَلَاسِلُ أَنْهَارِهِ ، وَدُرٌّ كَالطَّلِّ
مَنْشُورٍ ، وَجَيْبُ الرِّاحِ مَزْرُورٍ ؛ فَلَمَّا شَبَّ نَارَهَا ،
وَأَدْرَكَتْ فِيهِمَا ثَارَهَا ، بَاخَ كُلُّ مِنْهُمَا بِحَبِّهِ ، وَشَكَا
أَلِيمَ مَا بِقَلْبِهِ ، وَبَاتَا بَلِيلَةَ يَجْنِيَانِ أَقْحُوَانَ الثُّغُورِ ،
فَلَمَّا انفَصَلَ عَنْهَا صَاحَا ، أَنْشَدَ :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكَ
ذَانِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ
زَادَ فِي تِلْكَ الْخَطِيئَةِ إِذْ شِيعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءٌ وَمَنَى
حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلَى فَلَكُمْ
بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

ومرّت الأيّامُ ، وابنُ زَيْدُونِ وولادَةُ يَعْنَانِ مِنْ
 كَأْسِ الْغَرَامِ ، وَيتَنَقَّلَانِ فِي رِيَاضِ قَرْطَبَةَ كَفَرَاشَتَيْنِ
 طَلِيقَتَيْنِ ، يُرَدَّدَانِ فِي جَنَابِ الطَّبِيعَةِ الشَّابَّةِ الْحَالِمَةِ
 تَرَائِمِ الشَّعْرِ . وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ - جَلَسَا فِي مَجْلِسِ
 وَلَادَةٍ - وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهَا الشُّعْرَاءُ - فَأَنْشَدَتْ وَلَادَةً
 فِي ابْنِ زَيْدُونِ :

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلًا

بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الْوَبْلِ مُغْدِقِ

لَمْ يُظْهِرِ ابْنُ زَيْدُونِ إِعْجَابَهُ بِالْيَتِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ
 بِالسُّكُوتِ ، بَلْ رَاحَ يَنْقُدهُ ، مُدَّعِيًا بِأَنَّ فِيهِ دُعَاءَ
 عَلَى الْمَحْبُوبِ لَا دُعَاءَ لَهُ . وَأَحْسَتْ وَلَادَةُ إِهَانَةً ،
 وَجُرِّحَتْ كَرَامَتُهَا ، فَسَكَتَتْ عَلَى مَضَضٍ ، لَعَلَّ

ابن زيدون يَفْطَنُ إلى إِسَاءَتِهِ ، ويعملُ على أن
يَرْضَاهَا .

وَجَلَسَتْ عُتْبَةُ ؛ مَغْنِيَّةٌ وَلَادَةٌ تُرْسِلُ النِّعَمَ ، فَأَظْهَرَ
ابنُ زيدونَ إعْجَابَهُ ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُعِيدَ صَوْتًا
غَنَّتَهُ ، وَرَاحَتْ عُتْبَةُ تُلَبِّي رَغْبَةَ ابنِ زيدونَ ، وَفِي
عَيْنِهَا لَمْعَةٌ ، وَفِي وَجْهِهَا فَرَحَةٌ ، وَعَلَى شَفَتَيْهَا
بَسْمَةٌ .

رَأَتْ وَلَادَةً ذَلِكَ ، فَاسْتَشْعَرَتْ مَهَانَةً ، وَضَاقَتْهَا
مَا يَفْعَلُهُ حَبِيبُهَا ، فَمَا كَانَتْ تَظُنُّ أَنْ يُوَجِّهَ إِطْرَاءً إِلَى
غَيْرِهَا فِي حَضْرَتِهَا ، فَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تُلَقِّنَ ابْنَ
زيدونَ دِرْسًا قَاسِيًا . فَمَا إِنْ انْقَضَ عَقْدُ الْمَجْلِسِ ،
حَتَّى أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ :

لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا
لَمْ تَهْوِ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرْ

وتركت غصنا مثمرا بجماله
وجنحت للغصن الذي لم يُثمر
ولقد علمت بأننى بذرت السما
لكن ذهبت لشفوتى بالمشتري

٤

صدت ولادة عن ابن زيدون ، فراح يستحلفها
ويعث إليها أنينه ونجواه ؛ ولكنها أغلقت قلبها
دونه ، وسرعان ما وجدت عاشقا جديدا ، لا ينقذ
أشعارها ولا يتودد إلى جاريتها ؛ عاشقا مشغولا عن
الشعر ، بتدبير شئون الوزارة . فقد مرت بأبي عامر
ابن عبدوس وزير الدولة ، وأمام داره بركة دائمة ،
تولد عن كثرة الأمطار ، فنظرت إليه وهتفت :
- أبا عامر .

أنت الخصب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

وانسلت في دلال ، وأبو عامر ينظر إليها في
دهش وإعجاب ، لا ينس بكلمة ، وإن كان قلبه
أخذ يخفق في حنان . وما لبث أن تبعها كما أخذ ،
حتى غابت في قصرها ، وهو شارد القلب ، يستشعر
نشوة تنشق في أعماقه ، وخدرًا لذيذا يسرى في
روحه .

وتوطدت بينهما الأسباب ، فراحا يشربان كؤوس
الصباة والغرام ، وبلغ ابن زيدون نبأ حب ولادة
الجديد ، فرعت نار الغيرة في صدره ، وأخذت
تنهش قلبه ، فكتب إلى ولادة يئنها لواعج نفسه ،
ويلتمس منها أن تصفح ، وأن تنسى ما كان ، وأن
تعود إلى الوصال ، ولكن ولادة التي نشأت مدللة ،
لا تعرف إلا إجابة رغباتها ، رأت في إذلال
ابن زيدون انتقامًا لكبريائها ، فلجأت في الخصام .
فلم يجد ابن زيدون أمامه إلا أن يلجأ إلى غريمه ،

يستعطفه تارة ، ويُنذِرُهُ تارةً أخرى ، ولكنَّ ابنَ
عبدوسَ لم يَأبه بوعيده ، ولم يستمعْ إلى توسلاته .
وكتبَ ابنُ زيدونَ إلى ابنِ عبدوسَ ، رسالةً على
لسانِ ولادة ، كلُّها سُخريةٌ وزرابةٌ بابنِ عبدوسَ ،
وقرأت ولادةُ الرسالة ، فازدادَ غضبُها على ابنِ
زيدونَ ، وهجته هجاءُ مُراً ، فلم يَطوِ حُبّه ، بل
استمرَّ في هجومه على غريمه الوزير الخطير .

٥

ضاقَ ابنُ عبدوسَ ذرعاً برسائلِ ابنِ زيدونَ ،
وبتعريضه به ، والسُّخرية منه ، وفكَّرَ في أن يتخلَّصَ
منه ، فاتَّهَمَه بأنَّه يُحاولُ القيامَ بثورةٍ على
السُّلطان ، فقبضَ عليه واقتيدَ إلى قاضي قرطبة .
كان ابنُ زيدونَ قد استخفَّ بزعماءِ عصره ،
وكان كثيرَ النِّقدِ لهم ، حتى بات مُبغضاً منهم .

وكان قاضي قُرُطْبَة « أبو محمد عبد الله بن أحمد »
ممن أغضبهم ، فما إن وقف بين يديه ، حتى أمر
بسجنه .

أحسن ابن زيدون بتغس في سجنه ، فراح
يستعطف الوزير أبا الحزم بن جهور ، ويلتمس منه
العفو . ولكن أبا الحزم لم يُعِره أذناً مُصغية ، فيظل
يبعث إليه بقصائده ورسائله ، ويُرسِلُ إلى أصدقائه ،
ليُكلموا أبا الحزم لإطلاق سراحه . وأخيراً ينس من
التوسل والرجاء ، فعزم على الفرار .

وفي ليلة عيد الأضحى ، فر من سجنه ، وانطلق
إلى إشبيلية . وكان أول ما فعله أن بعث إلى ولادة
قصيدة يصف فيها حاله ، لأن أوار حبه لها لم يخب :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هلاً وقد حان صبح البين صبحنا

حين ، فقام بنا للحين ناعينا

إنَّ الزَّمانَ الَّذي ما زالَ يُضحِكنا
أُنسا بِقُرْبِهِمْ ، قد عادَ يُكينا

٦

ونَجَحَ أبو الوليدِ بنُ جَهورٍ في أن يُرَقِّقَ قلبَ أبيه
على ابنِ زِيدون ، فَصَدَرَ العَفْوُ عنه ، وأصبحَ الأمرُ
في يدِ أبي الوليدِ بعدَ مَوْتِ أبيه ، فَقَلَّدَ ابنُ زِيدونَ
الوَزارةَ ، ولكنَّ ذلكَ كلُّه لم يُنْسِه حُبَّه لولادَةِ ،
فراحَ يَجوبُ الأندلسَ كالغريبِ ، يكي حُبَّه
الضَّائعَ ، ويئنُ من جوى قلبه .

نَزَلَ قُرطُبَةَ ، وذهبَ إلى إشبيليةَ ، واتَّجَهَ إلى قصرِ
المُعْتَضِدِ بنِ عَبَّاد . ولَمَّا بَلَغَ المُعْتَضِدُ نبأَ قُدمِ
ابنِ زِيدون عليه ، خَرَجَ في وِزارَتِهِ لاسْتِقْبالِهِ ،
وخلَعَ عليه الخِلعَ ، وجعلَه وزيرَه ، ولكنَّ ذلكَ

المجد كله لم ينسِه حبه ، ولم يذهب المرارة التي كان
يحسُّها كلما فكَّر في ولادة .

ومات المعتضد ، وخلفه المعتضد بن عبَّاد ، فازداد
ابن زيدون في بلاطه رفعة ، وراح يقضى الليالي في
شرب وسمر ، يصغى إلى القيثان ، ويطلق
الضحكات ، ولكن قلبه كان يدمى ، فقد صارت
ضحكاته أنينا ، وبسماته ألما .

وظفَّق ابن زيدون يشرب الخمر ، لعله ينسى آلام
روحه ، وتقدَّمت به السن ؛ وبينما كان المعتضد في
قرطبة ، ثار اليهود في إشبيلية ، فبعثه المعتضد ليخمد
تلك الثورة ، فانطلق واهن الجسم ، شارد اللب ،
تنخيل له ولادة أينما يصرف البصر .

وبلغ إشبيلية ، وقد ثقل عليه المرض ، فراح يذكر
أيَّام الوصال ، فتبسط أسارىره ، ثم لا يلبث أن
يتذكر الهجران ، فيئن ويتوجع ، وينشد :

هل تذكرون غريباً عادته شجنٌ
 من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ
 يخفى لواعجه والشوق يفضحه
 فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ
 يا ويلتناه أبقى في جوانحه
 فؤاده وهو بالأطلال مرتهنُ
 وراح يلفظ أنفاسه ، فكان اسمُ ولادة بنتِ
 المستكفي ، التي لو عته بهجرها ، آخر ما نطق به .